

الإشاعة الحربية في زمن الإرهاب بالجزائر المفاهيم والنماذج: نحو قراءة أنثروبولوجية تفسيرية

The Rumor war In the period of terrorism in Algeria Concepts and models: Anthropological Approach Explanatory

د. مختار مروفل
أستاذ محاضر - أ - كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة وهران 2
moktariada@yahoo.fr

ملخص

تتصل ورقتنا بموضوع الإشاعة في زمن الارهاب الذي عاشته الجزائر خلال العشرية الأخيرة من القرن الماضي، في البداية سنلقي الضوء على الحقل المفاهيمي، والاصطلاحات الأكاديمية الموضحة والمفككة لمعنى الإشاعة التي تطل برأسها أثناء التوترات والأزمات، فتعصف بالمجتمعات في فترات الضعف والنكوص على الأعقاب، نشرح من خلالها الحثيات الخاصة بالموضوع المطروق ونساهم بها في التأصيل المعرفي، لهذه الظواهر وذلك بتحديد تصور رصين وواضح يستلهم مرجعيته من الدراسات والأبحاث الأكاديمية الكونية. ثانيا سنقدم إشارات عن الزمان وعن المكان، اللذان تتخذ منهما الإشاعة مسرحا لها وكذلك النماذج الميدانية الواردة في هذا السياق، وكيفية تحليلها وتأويلها وتحديد التساؤلات الكبرى المنبثقة من عمق هذه العملية. ثالثا سنخرج على الاستنتاجات والاستخلاصات الممكنة المتوصل إليها، معقبين في الأخير على خطورة الإشاعة والآثار التدميرية التي يمكن أن تحدثها على مستوى النسوج الاجتماعية والروابط الأساسية لها، الأكثر حميمية ومسؤولية في إنتاج عناصر اللحمة والقوة الخاصة بتماسك المجتمع.

الكلمات الدالة: الإشاعة، الاعلام، خوارق العادات، الأخلاق، الرابطة الاجتماعية.

Abstract

Our paper relates to the theme of the rumor in the era of terrorism that Algeria experienced during the last decade of the last century. In the beginning, we will shed light on the conceptual field, and the articulated academic terminology of the meaning of the rumor that arises during times of crisis. It explodes societies in periods of weakness and fallacy. We explain the rationales of the subject and contribute to the conceptualization of these phenomena by defining a clear vision. Inspired by its reference to global academic studies and research. Secondly, we will provide references on time and place, from which the rumor takes place, as well as the field models presented in this context, and how to analyze and interpret them and identify the major questions arising from the depth of this process.

Thirdly, we will review the conclusions and conclusions that can be reached. The latter will be based on the seriousness of the rumor and the destructive effects it can have on the level of the social fabric and its basic ties, the most intimate and responsible in the production of the elements of cohesion and the strength of social cohesion.

Keywords: Rumor, Media, Paranormal Habits, Ethics, Social Link.

الداخلي الذي عرفته الجزائر في تسعينيات القرن المنصرم؟ ربما سيفسح لنا هذا التساؤل المدخلي المجال للتعرف والتوصل الى المنطق الداخلي، الذي تتخفى من ورائه أفعال وتجليات ظاهرة الإشاعة في الواقع.

2- الإشاعة كسلاح للحرب

يؤكد لنا March Bloch أن الإشاعة هي جزء من جديد الحرب⁽²⁾، فما الذي يعنيه بذلك؟ لفهم هذا الإشكال والوقوف على تفاصيل ما أجمله Bloch، فإننا نحيل الموضوع إلى الباحثة Hannah Arendt وإلى ما كتبت به بخصوص هذه المسألة إذ ترى الكاتبة أن الإشاعة هي قاعدة من قواعد السياسة والحرب وهي وجه من وجوها، تقول Arendt بالنص "أن التزوير المنهج والكذب المحض هما أداتان من الأدوات المشروعة، المستعملة لأجل تحقيق الأهداف

السياسية، للعلم فإن هذه الوسيلة هي ليست بالجديدة إنما هي قديمة بقدم التاريخ"⁽³⁾.

إن في التراث العربي القديم ما يسند هذا الطرح ويدعمه، ففي كلمتين اثنتين جامعتين للقول تذكر بأن "الحرب خدعة" يكون العرب قد لخصوا المعنى الذي يتشكل منه منطق الحرب، إنه إيدان بكل الوجوه على مشروعية استعمال جميع الوسائل أثناء الحرب، فالمعلومة الخاطئة بإمكانها أن ترفع من معنويات الطرف المؤيد، كما أنها تحط من معنويات الطرف الخصم وهذا ما يبتغيه كل جانب وينشده في الحرب، الكاتبة فادية نصيف في دراستها للحرب الأهلية اللبنانية تدعم ذات التوجه حيث خلصت إلى القول، بأن الإشاعات هي بمثابة "الرغبات الكامنة في النفس الدفينية في للا شعور"⁽⁴⁾.

إن منح مكانة للإشاعة لا يعني أنها تتمتع بنفس الوزن الذي يتمتع به الخبر الصحيح، لكن هذا لا يمنحها على الرغم من هشاشتها أن تكون على صلة به، من هنا فهي مؤشر ثمين للدراسة وللتحليل يجدر الاهتمام به.

3- فهم الإشاعة

إن أول إشكال يواجه الباحث في مثل هذا الموضوع، يرجع بالأساس إلى مكانة الإشاعة التي لا تحظى بنفس المنزلة مقارنة بالحقيقة الموثوق بها، فهي في التداول العام مجرد أكذوبة لا ترقى إلى هذه المصادقية والمقبولية الواسعتين وعليه فإن السؤال الذي يواجهنا هنا، هو ما الذي يميز إشاعة عن أخرى ما دام أن جميعها عبارة عن كذب واختلاق؟ فهل هي غير دقيقة إلى هذا الحد؟ للعلم فإن هذا النوع من الأسئلة التي تحوم حول الإشاعة لم تطرق باب العلوم الإنسانية إلا حديثاً، هذا على الرغم من أن الإشاعة تعد "من أقدم أنواع الإعلام"⁽⁵⁾ الذي تعامل معه البشر.

في واقع الأمر لم تجد الإشاعة منظرها الحقيقي إلا في سنة 1902، وذلك لما نشر عالم النفس المتخصص في شؤون الأطفال L. William Stern أولى نتائج تجاربه الرائدة حول الإشاعة،

إن الإشاعة هي معلومة غير مؤكدة، لكن ليست بالضرورة أكذوبة يقول⁽¹⁾ P. Aldrin ربما كان ذلك رداً على الدراسات العديدة، التي ألحت مؤكدة أن الإشاعة ليست سوى محصلة لاتصالات بائسة تحدث بين الناس. إن العلوم الإنسانية وعلى خلاف من ذلك كله تنظر إلى الإشاعة على أنها كيفية من بين الكيفيات المعمول بها في الإعلام وفي الاستعلام وأن ميدانها المفضل هو المجال الغير الرسمي للمعلومة، لذلك يرى فيها البعض أنها تمثل الأداة القوية للمقاومة في يد الضعفاء، بينما يرى البعض الآخر أنها مؤشر دال على هشاشة الرابط الذي يصل الجماعة التقليدية بالنخب السياسية المتنافسة على الحكم، إنه بإمكاننا أن نجد ذلك كله في العنف الذي ضرب الجزائر خلال العشرية السوداء من تسعينيات القرن الماضي.

فمن بين السؤال الذي يحمل صيغة أما سمعتم شيء؟ وبين الجواب عليه مباشرة بصيغة قالوا! انبثقت الإشاعات لتطرح على الناس بدائل إعلامية، وذلك في الوقت الذي كان فيه الإعلام الرسمي في حالة دفاع عن النفس أمام هجمة القنوات الفرنسية والبريطانية وقناة الجزيرة التي كانت كلها تتحدث بحق أو بباطل على الفضائع المروعة، التي شهدتها الجزائر خلال العنف الدامي في العقد الأخير من الألفية الثانية، من هنا ظهرت الحاجة إلى الأخبار الغير الرسمية والذي أصبح الطلب عليها متزايد في تلك الفترة العصيبة.

حول هذا الموضوع سوف نتطرق إلى المسائل الآتية:

في البداية سنلقي الضوء على الحقل المفاهيمي، والاصطلاحات الأكاديمية الموضحة والمفككة لمعنى الإشاعة التي تطل برأسها أثناء التوترات والأزمات، فتعصف بالمجتمعات في فترات الضعف والنكوص على الأعقاب، نشرح من خلالها الحثثيات الخاصة بالموضوع المطروق ونسأهم بها في التأصيل المعرفي، لهذه الظواهر وذلك بتحديد تصور رصين وواضح يستلهم مرجعيته من الدراسات والأبحاث الأكاديمية الكونية.

ثانياً سنقدم إشارات عن الزمان وعن المكان، اللذان تتخذ منهما الإشاعة مسرحاً لها وكذلك النماذج الميدانية الواردة في هذا السياق، وكيفية تحليلها وتأويلها وتحديد التساؤلات الكبرى المنبثقة من عمق هذه العملية.

ثالثاً سنخرج على الاستنتاجات والاستخلاصات الممكنة التوصل إليها، معقبين في الأخير على خطورة الإشاعة والآثار التدميرية التي يمكن أن تحدثها على مستوى النسوج الاجتماعية والروابط الأساسية لها، الأكثر حميمية ومسؤولية في إنتاج عناصر اللحمة والقوة الخاصة بتماسك المجتمع.

في الأخير لا بد من الإشارة، أن موضوعنا هو ذو طبيعة كيفية أنثروبولوجية تعنى بالأساس بالجوانب التفصيلية المتعلقة بوقائع ووضعية ظاهرة الإشاعة في زمن الربيع. فكيف يمكننا إذن وصف وتشخيص ثم تفسير نشاط الإشاعة أثناء الاقتتال

الإبقاء على خط الاتصال مفتوحاً، إنها كاشفة للمعاني وأحد الأساليب المهمة في البحث داخل المجتمع، لذلك وجب التعامل معها بجديّة.

لقد بينت الأبحاث الأخيرة لكل من-P. Froissart, V. Champion Vincent, J.-B. Renard بما فيه الكفاية محدودية الرؤية التي تعتبر الإشاعة مجرد خبر خاطئ، يروج بين عموم الناس وأن الخبر الصحيح فقط هو ذاك الذي تذيبه السلطات المؤسسية الرسمية⁽⁹⁾، لقد انتشرت بالفعل هذه الفكرة سنة 1941 في الولايات المتحدة الأمريكية أثناء الحرب، وذلك لما كان الأمر يتطلب مواجهة الدعاية الألمانية، منذ ذاك أصبح هذا التصور تقليداً متبعاً لدى جميع النظم الحاكمة، لقد روج لهذا الاتجاه بكثافة كل من الأمريكي Gordon W. Allport, Leo Postman بالأخص في كتابهما The Psychology of Rumor الذي نشر سنة 1947⁽¹⁰⁾، مفاد أطروحتهم يقول أن جميع الإشاعات هي خاطئة ما لم يرد تأكيدها من قبل جهة رسمية.

للخروج من هذا الجدل المتعلق بمكانة الإشاعة إذا ما كانت صحيحة أم خاطئة، ظهر تيار بديل آخر يفضل الحديث على الملحمة الحضرية أو الملحمة المعاصرة بدلاً من الحديث على الإشاعة، هذا التيار الذي شكله الفولكلوريون الأمريكيون سنة 1970، أطلق على الأخبار التي تبدوا صحيحة بينما هي في الواقع ليست كذلك بالأخبار المعاصرة، للعلم فإن توظيف مصطلح الحضرية هنا يشير في أدبيات مدرسة شيكاغو منذ نشأتها، إلى اعتبار المدينة على أنها مجال للعيش ومجال للحدث في آن واحد⁽¹¹⁾، من هنا فإن الإشاعة وفق رؤية هذا التيار هي ملحمة معاصرة أو ملحمة حضرية، ثمة إشارة مهمة هنا تستدعي منا وقفة تأملية، إذ ما الذي يعنيه الجمع بين زمنيتين مختلفتين، زمنية الملحمة التي تنتمي إلى الماضي السحيق وزمنية المعاصرة أو الحضرية التي تنتمي إلى زمن العقلنة الحديثة، فما المقصود بهذا التعارض؟ في الواقع إن الزمن الحاضر بمجالاته المعاصرة وتنظيمه العقلاني، لا يزال يُصنع ويصاغ بوسائله الحديثة من الروايات الملحمية والتقنيات التي قد تكون قديمة أحياناً، فلا يُتخيل بالتالي أن الحداثة الراهنة قد أفرغت من كل ما هو تقليدي أو عتيق، بل إن الكثير من مظاهرها هو ليس سوى تجلي واضح أو تجديد لأشكال قديمة أعيد إخراجها في أثواب جديدة لتسرد هنا بعض النماذج الخاصة بتلك الملاحم الحضرية.

4- دناءة الإشاعة

تحدثنا الإشاعة عن القوة المفترضة أو المرجوة، التي يتمتع بها الخصم في قهر عدوه وإذلاله، ففي الاقتتال الداخلي الذي عرفته الجزائر في تسعينيات القرن الماضي، كان أحد الأمراء -تقول الإشاعة يغمس يده في دم ضحيته الساخن بعد ذبحه، ثم يوقع بعد ذلك باسمه على قتله. إن الإشاعات من هذا النوع التي كثرت في تلك الفترة كانت تشير كلها إلى حالة الذعر والرعب التي سادت آنذاك، لنقدم نموذج آخر يعزز هذا المعنى، ففي سنة 1995 وفي مجلس سمر في إحدى ولايات الجنوب والتي

فلقد كتب Pascal Froissart قائلا: "أن Stern هو أول من بدأ العمل حول الإشاعة، فلم يسبقه في ذلك أحد بمجال العلوم الاجتماعية، حيث عرض ملفاً نادراً من التجارب الخاصة بالإشاعة وذلك ضمن سلسلة من المواضيع"⁽⁶⁾.

فحول خبر مشكل من تسع وأربعين تفصيلاً، تم تناقله بشكل متسلسل من شخص إلى آخر لا حظ Stern أن الخبر المذكور قد تقلص بسرعة إلى اثنان وأربعين تفصيلاً وذلك بمجرد أن وصل إلى الشخص الرابع، هذا ناهيك عن الإضافات والتحويلات والإلغاءات التي استحدثت على الخبر الأصلي والذي تغير بشكل كامل على ما كان عليه⁽⁷⁾. إنه على الرغم من الاتجاه الوضعاني الذي تحمله هذه التجربة وتفاوتها الزائد بقياس الظواهر آنذاك، إلا أنها فتحت الباب أمام العلوم الاجتماعية لتبحث في مثل هذه المسائل، فلقد بينت هذه الدراسة بجدارة أن الرسالة وهي تتناقل وتتداول بين الناس يحصل لها الكثير من التعديل والتحويل، وهذا ما يتطابق تماماً مع ظاهرة الإشاعة في المجتمع التي تشوه الرسالة بالمطلق.

ثمة مواصفات أخرى يمكن رصدها في الإشاعة، فهي رسالة مجهولة تصطبغ بكل الألوان تعبر من القنوات الغير الرسمية للتواصل، يمكنها بالفعل أن تنطلق من وقائع حقيقية لتضيف عليها عناصر غير معروفة، بإمكان المتلقي أن يضيف إليها بعض الشيء يكون قد تغافل عنه الناقل الأصلي، أو حتى يحور ويبدل من بعضها أو من كلها وذلك على حسب مزاج الشخص الراوي وأهوائه الذاتية. إن هذا النمط من الأخبار يدفع بنا للتساؤل قائلين، لماذا يؤمن بعض الناس بالإشاعة بينما لا يؤمن بها البعض الآخر؟ الجواب هو أن الأمر يعود إلى عهدة الراوي، فعلى قدر تحكم هذا الأخير في المعاني تكون نسبة النجاح في تمرير الرسالة إلى المستقبل مرتفعة، فالعملية تبدوا بكل بساطة كمحاولة للانتقال من العالم الافتراضي إلى العالم الواقعي، إنها تفتتح الآفاق أمام الانتظار حيث يتأمل منها البعض أن تحقق أمانيه وتخيب في المقابل أمانيه البعض الآخر المناوئ له، بهذه الكيفية تكون الإشاعة قد دخلت على خط الكسور والجراح التي يتألم منها المجتمع، فتتحول بذلك إلى آلية من آليات التفكيك والتفتيت المنهج الذي يطاول لحمية المجتمع الواحد لتصبح بعد ذلك جميع عناصره الأولية في حالة صراع فيما بينها.

لماذا الاهتمام إذن بكلمة غير مؤكدة؟، يجيبنا A. Akoun في ما كتبه بموسوعة universalis المعروفة بقوله "أن فيرجيل قال في إنيادته أن الإشاعة المرسلّة، الصائبة منها والخاطئة هي أسرع من جميع الكوارث المرعبة، فهي تتضخم وتزداد كلما اتسعت رقعة انتشارها"⁽⁸⁾ (بتصرف)، فالإشاعة هنا ليست بالأكذوبة ولا بالحقيقة المرة، إنها جزء من هذا وذاك تنطلق في الأول من وقائع حقيقية، لكن سرعان ما تشوهها وتضخمها، مستغلة في ذلك جراح وأشجان ماضية أو آمال مرتقبة بشدة، فهي إن شئنا لسان الحاجة إلى المعرفة وكيفية من كفيات

التي تنسج منها وحدات المجتمع فتصيبها بالخواء⁽¹³⁾.

تأكيدا منا لهذا المعنى نورد إشاعة أخرى روجت في زمن الإرهاب بصيغ وبشخصيات مختلفة، تقول الإشاعة، أن الجماعة الإسلامية المسلحة المعروفة اختصارا باسم GIA بعثت برسالة تهديد إلى أحد خصومها، تعده فيها بالموت ذبحا عند منتصف الليل بالضبط. لقد قرر الرجل حينها أن لا يرح مكانه وأن يبقى محاطا بعائلته وأقاربه في بيته، فأوحد الأبواب واستعد الجميع لمواجهة العدو الداهم مترقبين قدومه في أية لحظة، لقد كان الضحية في ذلك الوقت يجلس بالقرب من ابن أخته الشاب، ولما حان الموعد الفاصل أخرج الأخير سكينته الحادة وهمس في أذن عمه قائلا له، لقد حان موعد ذبحك فنفذ فيه الحكم بدم بارد، هذه الإشاعة وغيرها من الروايات المشابهة التي تداولها الناس في تلك الفترة بكثافة، إنما جاءت في واقع الأمر لتعبر عن أزمة فعلية هزت بعنف كيان رابطة الدم وفككت دوائرها الفيزيائية التقليدية العتيقة التي نشأ منها المجتمع، ففتت وحداته التضامنية وحولت لحمته المجتمعية إلى مجرد أعداد من الأفراد المعزولين، هذا ما توحى به وتحاول أن تقولنا لنا على الأقل مضامين تلك الإشاعات المشار إليها.

5- الإشاعة وخوارق العادات

يذكر أحد الشباب من مدينة قسنطينة في شرق البلاد، أن أخاه أمضى خدمته العسكرية في زمن الإرهاب بغرب البلاد، لقد كانت العائلة جد قلقة عليه، حدثه ذات مرة قائلا "أنه خرج مع كتيبته لتمشيط الجبال، فإذا بهم يفاخون بعض المسلحين وهم مجتمعين بعين المكان يصاحبهم في ذلك أميرهم المحنك المعروف في جهة الغرب باسم قادة ابن شيحة لقد سدوا في وجوههم جميع المنافذ ولم يتركوا أمامهم سوى خيار الاستسلام، لقد وقع هذا في وضوح النهار والشمس بازغة، لكن الذي حدث أمر لا يخطر على بال، لقد نزلت غيمة مفاجئة حالت بيننا وبين المسلحين-يقول الراوي-، لقد كانوا أمام أعيننا يسبحان الله فإذا بهم يختفون من دون أن يخلفوا ورائهم أي أثر يذكر".

واضح من خلال هذه الرواية اتجاه المتحدث وأي فريق هو يحبذ ويناصر، لكن الأوضح من ذلك هو اجتياز الإشاعة للحدود الجغرافية، متنقلة بذلك من الغرب إلى الشرق بكل مرونة وسلاسة لتشمل مختلف ربوع البلاد. إن عامل الخوارق هنا يعتبر أمضي سلاح تتجهز به الإشاعة، فالذين اشتغلوا على الملاحم الحضريّة مثلما أشرنا آنفا، يؤكدون على أنه من بين الأسباب العميقة لنجاح الإشاعة هو "إثارة الأخيرة للعوامل الرمزية المدخنة في المخيال الجمعي والذي من بينها الفلكلور القديم والأحاجي والأساطير"⁽¹⁴⁾، في الحالة الراهنة هنا فإن العامل الرمزي يكمن في تواطؤ الطبيعة مع المسلحين حيث تدخلت الأخيرة بكل ثقلها لأجل إنقاذ الأمير وجماعته. إن هذا الأمر يعني الكثير على مستوى المخيال الجمعي، فهذا الحدث يشبه ويذكر بما وقع لنبي الكريم (عليه الصلاة والسلام) لما أضلته الغمامة قبل بعثته وهو في قافلة التجارة التي كان يشرف عليها، فالقصة معروفة في الحكايات الشعبية تحت

كانت بعيدة كل البعد على ما كان يحدث من تراجيديات في مدن الشمال، كان من بين الجلساء رجل من مدينة البليدة التي كانت في تلك الفترة من أكثر المناطق دموية في البلاد، ففي سياق الجلسة راح الرجل يروي قصص القتل التي عاشتها البلدة. لقد أسهب في الحكى وعدّد من القصص ومن الروايات التي يبدوا بعضها متماسكا والبعض الآخر مترهل، كل ذلك أمام المتلقين الذين يطلبون المزيد من القصص المرعبة والتي تحمل الراوي تقديمها إلى مستمعيه، دونما معاناة في الحقيقة تذكر أو حتى تعابير تعالي تقاسيم وجهه فتوحي بصدقه، من ذلك قوله:

"أن أحد من شباب الجيرة تزوج، فدعا أصحابه وأقاربه ليشاركوه فرحته واحتفاله الذي استمر إلى وقت متأخر من الليل، وفي الصباح وكما جرت العادة خرج الزوج مع أصدقائه المقربين إلى الخارج حتى يقضوا الفترة الصباحية معا ويتناولوا الطعام وبالمرّة يترك الفرصة إلى أقارب الزوجة حتى يرونها ويباركون زواجها، ولأجل إتمام تقاليد هذا الحدث ينتظر الحاضرين من أقارب الزوج والزوجة عودة الابن وهو يحمل قفة الفواكه المتنوعة ليوزعها عليهم، معلنا بذلك تفاؤله بدوام السعادة والهناء بين الأسرتين، لكن الذي حصل أن القفة عاد بها أحد أصدقائه ولما سألتها والدة العريس عن ابنها أين ذهب؟ قال لها والدهشة تملك فواده أنه هنا في القفة ولما نظرت إليها وجدت رأس ابنها مقطوع ومشوه، فالتقت بالقفة فتدحرج الرأس على الأرض بالغا بذلك أقدام والدته".

مثل هذه القصص الكثيرة وغيرها التي راجت زمن الإرهاب، فإنه بغض النظر عما إذا كانت صحيحة أم خاطئة ليس هذا هو المهم، فإن المشترك الرئيس فيها هو دائما الرأس المقطوعة التي تلقى بين يدي الأهل، أما التفاصيل الأخرى فهي تتغير من راوي لآخر بحسب الظروف وبحسب أيضا شخصية هذا الأخير. إن هذه الإشاعة لنذكر تشبه إلى حد بعيد ما كتبه Jules Gritti في كتابه الذي يحمل عنوان الإشاعة تجري تجري⁽¹²⁾، حيث ذكر أنه أثناء الحرب الأمريكية على الفيتنام ويدعوى من البنتاغون التي وجهت إلى إحدى السيدات لتذهب إلى محطة القطار حتى تستقبل زوجها، فإذا بها تفاجأ هناك باستلام كيس يحمل جثة زوجها المبتور الذراع والفخذ. إن هذه الإشاعة وإن كانت لا تحمل نفس الدلالات والأبعاد الموجودة في الإشاعة السابقة، إلا أنها وعلى الرغم من الاختلاف الموجود في الزمان وفي المكان مقارنة بالإشاعة الأنفة الذكر، فهي تشير إلى نفس الأفعال وإلى نفس الجو من الرعب ومن الخوف.

إن شائعات الرعب التي تروج لشبح الموت في اللحظات الأكثر اتصالا بالحياة، كمناسبات الزواج مثلا والتي يكون أبطالها المستهدفين، عادة من العائلة كالأم والزوجة أو الأخت أو أحد الأقارب لا تكاد تخص ولا تعد. إن تزامن هاذين الحدثين أو لنقل التقاء "موسمي الحياة" في وقت واحد ضمن الإشاعة لم يأتي عن طريق الصدفة، فاستهداف الزواج الذي يرمز إلى الحياة الواعدة بالموت القاسي الذي لا يرحم، الغرض منه في الإشاعة هو خلط الأوراق وخلخله المعالم وتثبيت الفراغ، وفي جميع الأحوال فإن الخوف والذعر هما المنتصرين الوحيديين في مثل هذه الحالة، ثم إن استهداف العائلة كآخر معقل من معاقل الرابطة الاجتماعية، يجعل لا أحد من المجتمع في مأمن من هذا الرعب. إن الإشاعة بذلك تربح أرضا جديدة، بالأخص في وسط الكيانات المسؤولة على إنشاء الروابط

مسمى "صاحب الغمامة". إن الأمير ابن شيحة يتماها هنا إلى حد بعيد مع هذه الصورة الراسخة في المخيال العام، هكذا إذن تدغدغ الإشاعة مشاعر جمهورها من خلال توظيف العناصر الرمزية والملمحية.

6. العنف والأخلاق

في زمن الإرهاب لا يعدم الملاحظ وجود إشاعات، تدافع عن قيم أخلاقية سامية تروج للعدل والإنصاف والقيام بالحقوق وبالواجبات، من ذلك الإشاعة التي كثر الحديث حولها بين الناس بصيغ مختلفة والتي تقول، "أن مجموعة من الإرهابيين أوقفوا مواطنا كان على متن سيارته، فأجبروه على النزول وتركها وذلك حتى يتسنى لهم بعدها القيام بأعمال إرهابية، لكن في المساء يتفاجئ الرجل ليجد سيارته مركونة أمام بيت منزله والأكثر من ذلك معبئة بالبزنين بشكل كامل وبداخلها مكافئة مالية سخية". إن صورة الإرهابي هنا سرعان ما تختلط بمشاعر الشخص الذي لا ينسى تأدية واجب الإكرام تجاه من يتفهمه ويتعاون معه. إن هذه الصورة هي جزء من "الملاحم الحضريّة" التي ترسخها الإشاعة في المراكز والمدن الكبرى. إنها تسجل بذلك رغبة العنف بالظهور في مظهر الشخص الذي يؤدي دورا بطوليا ويسطر عمليات أسطورية. إنه بحسب المقاصد التي ترمي إليها الإشاعة يستحق الدعم والتأييد ما داما أنه يقاتل ضد نظام يقمع الناس ويسلب حقوقهم، فهي إذن دعوة للناس حتى يقفوا بجانبه فهو لا يستهدفهم بقدر ما يستهدف هذا النظام وأعوانه.

7. الإشاعات والإعلام

غالبا ما ينظر للإعلام على أنه مصدرا للإشاعات الرسمية بل حتى الغير الرسمية، فهل يعد الإعلام بالفعل مختبرا متخصصا لصناعة الإشاعات وفبركتها؟ أم أنه هو ذاته ضحية لها؟ مع البدايات الأولى للعنف كانت أغلب الصحف تتحدث عن الإرهابيين الذين وقعوا في كمائن الأمن مضبوطين في حالة سُكر، بعض الصحف المناوئة للتيار الإسلامي في عمومته تنافست على تقديم الصور السلبية، أو حتى التقليل من المكانة الإيجابية التي تحظى بها المعارضة المسلحة عند فئات واسعة من الناس خصوصا الشباب منهم، واضح هنا أن الإشاعة استخدمت في إطار الاستهداف الممنهج، "لعقل وقلب ونفس الفئة الحاضرة للخصم وليس جسدها، أي أنها اتجهت إلى المعنويات لا إلى الممتلكات. إنها ببساطة تود النيل من فكر وروح العدو حتى تحطم معنوياته"⁽¹⁵⁾، بعض الإشاعات تحدثت على جثث عدد من المسلحين والتي بعد تشريحها، تبين أن أصحابها غير مختنئين وذلك في إشارة إلى وجود عناصر أجنبية في صفوفهم ومن ثمة تأليب الرأي العام ضدهم.

جانب من المسلحين وبعد يأسهم من جدوى محاربة النظام، انقلبوا على معتقداتهم وأطلقوا على أنفسهم اسم "الغاضبون على الله"، فقطعوا جميعهم أصابع السبابة التي يتشهدون بها أثناء تأدية الصلاة، كما حلقوا رؤوسهم وجعلوا النساء هدفهم

الأول في القتل وذلك حتى لا يحبلن ويلدن بحسب زعمهم أطفالا مسلمون بعد ذلك، هذه الإشاعة تناقلتها الصحف الفرونكوفونية بالأخص المناوئة للتيار الإسلامي سنة 1997⁽¹⁶⁾، أي السنة التي استشرس فيها الإرهاب واستغول، وكثف من عملياته الإجرامية ضد المدنيين. إن صحفي التيار اليساري والذي كان البعض منهم ينتمي إلى قدامى الحزب الشيوعي في الجزائر حيث كانت قضيتهم الأولى هي النضال ضد "مخدر الشعوب" وذلك في إشارة واضحة منهم إلى الدين على حسب ما تذكر أدبياتهم⁽¹⁷⁾، عاد من جديد ليلعب دور الماشيطن والمشوه لكل ما يتصل بما هو إسلامي، فلم يراعي بذلك أصول العمل الصحفي ولم يكلف نفسه عناء التحقيق والتدقيق في المعلومة قبل نشرها، هدفه الوحيد هو ممارسة "الهدف الإعلامي"⁽¹⁸⁾، وذلك من أجل كسب سبق الصحفي وإشباع ميوله الأيديولوجية.

مع مجيء الرئيس عبد العزيز بوتفليقة إلى الحكم، تغيرت استراتيجيات الدولة تجاه الإعلام فحدت من حريته التي كان ينعم بها من ذي قبل، فاضطر الصحفيون بذلك إلى تغيير أساليبهم في التعامل مع المعلومة، وذلك حتى يستمروا في عملهم ولا توقف جرائدهم عن النشر⁽¹⁹⁾، فبدأت الأخبار تصدر في صورة إشاعات وأحداث غير مؤكدة، ترفع عن كتابها التكليف والمسؤولية ولعل بعض العناوين التي كانت تصدر في بعض الصحف تثبت ذلك وتأيد.

فجريدة الوطن الفرونكوفونية الأولى في البلاد، خصصت لذات الغرض زاوية في صحيفتها لكتابة المقالات الصادرة بعنوان "قلنا لكم"، أما يومية وهران ثان جريدة كبرى تصدر في عاصمة الغرب الجزائري وهران، فلقد فتحت المجال لكتابة مقالات تصدر تحت عنوان "أرينا رأيكم"، بينما جريدة الحرية القريبة في ميولها إلى التيار الأمازيغي، فإنها فضلت عنوان "الرادار" وذلك من أجل تسريب المعلومات التي تراها مهمة، بذلك تكون الإشاعة قد تحولت إلى أداة تواصل جد إستراتيجية ينتهجها الصحفيون وذلك بقصد تجنب قصف أقلامهم وتوقيف جرائدهم عن الصدور. إنها بديل عن السكوت ومتنفس للمواطن ليستمر ويقول، ما يعني فتح الباب أمام ازدياد الاضطرابات ومن ثمة إطلاق الكلام على عواهنه.

8. الخاتمة

بداية ومن أجل وضع ظاهرة الإشاعة، في زمن العنف السياسي بالجزائر من تسعينيات القرن الماضي ضمن الإطار الأكاديمي، فإننا فتحنا ملف الأفكار والأطروحات النظرية التي هي بالنسبة إلينا بمثابة الأدوات التي يحتاج إليها كل باحث في مجال تخصصه، لقد أفادتنا تلك الدراسات بتوجيه ملاحظتنا، حتى ننظر إلى ظاهرة الإشاعة بنظرة الخبر الذي يحمل رسائل الإعلام والاستعلام النشط بشكل لافت في المجال الغير الرسمي، من هنا فإن الإشاعة ليست بالخبر الكاذب الذي يجب رفضه بالجملة ولا حتى بالخبر الصادق الذي يعتمد عليه في التداول

- 2- جابر صلاح، "11 أطروحة حول الانبعاث الراهن للسلفية الإسلامية" جريدة المناضل أول فبراير 1981.
- 3- نعيصة غياث، الموقف الماركسي من الظاهرة الدينية: <http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=204742>
- 4- عبد الفتاح المصص. فايز شلدان. الأبعاد النفسية والاجتماعية في ترويج الإشاعات عبر وسائل الإعلام وسبل علاجها من منظور إسلامي. مجلة الجامعة الإسلامية. المجلد الثامن العدد الثاني. ص 145-147 يونيو 2010.

باللغة الأجنبية

- 1-AKOUN A. Encyclopaediauniversalis. entrée « Rumeur ».
- 2- ALDRIN P. . Sociologie politique des rumeurs, Paris, PUF, 2005.
- 3- ALLPORT G. W. ET POSTMAN L., the Psychology of Rumor, New York, Russel&Russel, 1947.
- 4- ARENDT H. 1994, Du mensonge à la violence. Essais du politique contemporaine, Pris, Calman-Levy, . p.8-9.
- 5- BLOCH M. 1997, «Réflexion d'un historien sur les fausses nouvelles de la guerre» Ecris de guerre, 1914-1918, . Paris, Armond Colin, P. 169-184.
- 6- CAMPAIN. V - VINCENT et RENARD J.-B., De Source sûre. Nouvelles rumeurs d'aujourd'hui, Pris, Payot, 2002.
- 7- FROISSART P., « L'invention du plus vieux média du monde », Médiation et Information, N 12-13, 2000, p 183-195.
- 8- FROISSART P., « Des théories sur la rumeur. Pourquoi faire ? », (<http://pascalfroissart.online.fr> consulté avril 2006).
- 9- GRITTI J., Elle Court, elle court la rumeur, Ottawa, Stanké, 1978.
- 10- KAPFERER J. N., Rumeurs, La plus vieux média du monde, Paris, Seuil, 1989.
- 11- NASSIF TAR KOVACS F., Les Rumeurs de guerre du Liban. Les mots de la violence, Paris, CNRS éditions, 1998, p. 275.
- 12- SCHEIDERMAN D., Le Cauchemar médiatique, Paris, Denoël, 2003.
- 13- WIRTH L., " Urbanism as way of life " , American Journal of sociology, vol. 44, N 1, juillet 1938, p. 1-24.

ونقل الحقائق والأحداث. إنها خليط من هذا وذاك يشهد أوارها في اللحظات الصعبة من عمر تطور المجتمعات، فكيف انعكس ذلك كله وترجم على أرض الجزائر في زمن ما بات يعرف باسم العشرية السوداء، التي مرت على البلاد أواخر القرن الماضي؟

إن النماذج المقدمة في هذا العمل تشير، أنه في إطار الحرب النفسية التي خاضها كل طرف ضد الطرف الآخر، فإن التسليح بالإشاعة كان من أفلك الطرق المستعملة في الإطاحة بالخصم بحيث قام كل جانب على حدا "بابتكار" الإشاعات التي تجلب له الدعم والتأييد في صفوف المواطنين، هنا ظهرت الإشاعة بأثواب وأزياء متعددة، فهي تارة تلبس لباس القوة والإقدام وتارة تظهر بمظهر من يقيم العدل والانضباط المدعوم بنصر الله وأحيان أخرى، تكتسي لباس الشيطنة والتشويه والخصم من رصيد الطرف المناوئ الذي يحظى بالتعاطف والقبول الشعبيين، مستعينة في ذلك بوسائل الإعلام الرسمي.

كل ذلك يبين مدى تهافت المتناحرين وسعيهم الحثيث، لاقتناء الإشاعات والأراجيف واعتماد ذلك في ضرب حصون الخصم وهدم تماسكه، فهي بذلك وسيلة إستراتيجية فعالة لا يعدمها المتخاصمين أثناء استهدافهم لبعضهم البعض، لكن ما الذي يترتب عن ذلك؟ إن الإشاعة وعلى الرغم من أنها تريح البعض وتكسبه وتخسر البعض الآخر وتضعفه، إلا أنها وبالمناظر العام تمزق لحمة المجتمع وتفت في عضده وتبعثر أجزائه وأوصاله، كما أنها تخلط جميع الأوراق ولا تترك من المعايير والقيم ما يحترم، فليس ثمة خطوط حمرة تقف أمام تقدمها وزحفها، فهي ذات آثار تدميرية خطيرة تطيل من أمد الصراع الدامي وتطلق العنان للكلام حتى يمعن في إيذاء الخصم فيردعه دونما ضابط أو رابط.

كل الشواهد والنماذج التي تعرضنا إليها في هذا العمل، إنما جاءت لتعبر على جميع هذه الدلالات والمعاني التي كانت الجزائر في الفترة المشار إليها، هدفا للإضعاف وضرب الوحدة وشق الصف الوطني من قبل جهات متربصة سواء من الداخل أو من الخارج. إن تسليح الإشاعة الأمنية ضمن هذا السياق، هو في الواقع جاء من أجل إضفاء معنى عبثي على الموت المتبادل بين الأطراف المتناحرة وأيضا لإحلال حالة الفراغ وذلك من خلال هدم المعالم المعيارية والقيمية الضرورية في التعايش والتواجد الجماعي الآمن. فهل سيستفيد يا ترى صناع المشهد الإعلامي في أوطنا العربية ومن ورائهم صناع القرار مما جنته الإشاعة والإشاعة المضادة من تخريب للرابطة الاجتماعية ومن هدر لمقدرات البلاد والعباد على بلدنا الجزائر؟

المراجع

باللغة العربية

- 1- بويحيوي عبد الكريم، تفكك الرابطة الاجتماعية عبر وسائل الاتصال، من الأنوميا إلى ظاهرة الخواء الاجتماعي، ص، ص 322-304. الروابط الاجتماعية في المجتمع الجزائري، فعاليات الملتقى الوطني الرابع، لقسم علم الاجتماع كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة الجزائر المنعقد يومي 6 و7 نوفمبر 2006.